# شخصية الكلمة ..

بقلم محمد عبد الحليم عبد الله

« أنا شخصياً أحس أن الكلمات المفردة لها ملامح »
« وألوان وطول وعرض ، وظل مثل ظل الروح على وجه »
« الانسان . واخال كل أديب يحس نفس الاحساس »

يقوم مقالي هذا على اسئلة تبدو الاجابة عنها للوهلة الأولى سهلة يسيرة. لكن ( الاجابة ) في محيط العلم والفن تتغير من جيل الى جيل وان ظلت صورة (السؤال) باقية لا تتغير .

اما الأسئلة التي اريد ان أجيب عنها فتتلخص فيما يلي :

(١) هل يكفي أن يعرف الأديب معنى ( الكلمة ) حتى يوفق في استعمالها كجزء من الجملة ؟ وهل يتفق أديبان تمام الاتفاق في هذه العملية ؟

(٢) هل هناك علاقة شخصية — تحس ولا توصف — قائمة بين الأديب و ( الكلمة ) ؟

(٣) ما قيمة هذه العلاقة في استعمال ( الكلمة ) عند الكاتب . والكاتب المترجم ؟ ( حرصت تمام الحرص على أن أصف المترجم بأنه كاتب والا فلا أعتبره مترجماً ) .

* * *

**عن السؤال الأول :**

منذ عشرين سنة وأنا أعيش — بحكم وظيفتي في المجمع اللغوي — بين الكلمات العربية كمفردات . ومنذ عرفت قراءة الأدب وأنا أعيش بين الكلمات العربية كجمل أو أساليب أو مجاميع .

وكنت قبل عشرين سنة أعتقد أن الكاتب يستطيع أن يختار بين المترادفات فيضع كلمة مكان كلمة لأنه يغلب أن تكون الكلمات متشابهة كما تتشابه الأشياء المصبوبة في قالب واحد .

لكنني أدركت بعد ذلك أن في ( الكلمة ) سراً ولها خاصة ووظيفة . وفيها شحنة من الذكريات ليس في مقدور كل كاتب أن يطلقها — بالاستعمال — من كيان الكلمة . وهناك كلمات عاشت في لغتنا أكثر من أربعة عشر قرناً مثلا استعملتها ملايين الألسنة وملايين الأقلام ملايين المرات وفجرت باستعمالها هذا طاقة الدلالة الكامنة في كيانها. وبقيت دلالتها ثابتة أو تغيرت على حسب الظروف فكونت الكلمة لنفسها ( شخصية ) تختلف قوة وضعفا وتوسطاً بين الاثنين ، كشخصية الانسان سواء بسواء .

وليس كل الناس يستطيعون ان يفهموا شخصية غيرهم . وليس كل كاتب يستطيع ان يفهم شخصية الكلمة . والذي ينجح في فهم شخصية الناس ينجح في معاملتهم . والذي ينجح في فهم شخصية الكلمة (يعني طاقتها ومدلولها وذكرياتها) ينجح في استعمالها أيضاً .

لهذا فان هناك كلمات لها مجد وعراقة وأقدمية كسبتها بقدرتها على اجتياز القرون ووصولها الينا واحتفاظها برونقها وجمالها الأول فضلا عما كسبته في رحلتها الطويلة من مميزات ينتفع بها القادرون على اشاعة ( هذه الطاقة ) في جو أسلوبهم .

ولهذا أراني أنظر بقلق واشفاق الى الذين يظنون أن المترادفات تطويل لا لزوم له . والى الذين يعتقدون ان الكلمة العامية التي تشبه ( السَّقْط ) أقدر على وصف المشاعر من الكلمة الفصحى لأنها هي اللغة التي يتكلمها الناس . واذا كانت الكلمة تكتسب شخصيتها بطول العمر وكثرة الاستعمال فانه من المحال أن تكون العامية ذات كلمات لها ( شخصية ) لأن الكلمات في اللغة العامية فقاقيع سريعة الظهور ، سريعة الاختفاء . الا اذا كان هناك ( عامية رفيعة ) يقدر على الكتابة بها قليل من الناس . وذلك موضوع آخر يحتاج الى نقاش .

واذا سلمنا بأن لكل كلمة ( شخصية ) فلا مفر لنا أن نسلم بأنه من غير الممكن أن يتفق كاتب وآخر في استعمال الكلمة لأن كلا من الكاتبين يدرك شخصية الكلمة بحسه الذاتي ويفجر طاقتها في الأسلوب بطريقته الشخصية ، فلا مفر اذن من الاختلاف .

**وعن السؤال الثاني :**

أقول : ان هناك علاقة – تحس ولا توصف – تقوم بين الأديب والكلمة .

فالكلمة نبرة موسيقية ذات دلالة متفق عليها . وهكذا تجمع الكلمة بين مزية النغمة ومزية تحديد المعنى . فأنا مثلا حين أسمع كلمة : ( خلود ) تكون موسيقى نطقها بمثابة باب ينفتح فيدخل منه خيالي الى عالم أستطيع أن أصف منه شيئاً . ولم يتكون هذا العالم عندي في دقيقة واحدة ، لكنه مكوّن جاهز من ذكريات هذه الكلمة ( خلود ) التي تتمثل في عدد المرات والعبارات التي قرأتها فيها او كتبتها فيها أو سمعتها فيها . وهذا العالم يتحكم فيّ انا حين اريد استعمال هذه الكلمة . أو بعبارة أوضح : أنا لا أستطيع التخلص من شخصية هذه الكلمة حين أستعملها وأكون خاضعاً لتاريخها في نفسي .

أما عالم هذه الكلمة في خيالي فهو على هذه الصورة : « فنان في حجرة منزوية على سطح في حي راق . شاب يؤمن بنفسه ولا يؤمن به الناس ؛ يفطر خبزاً ويتغدى كداً ويتعشى بالأمل ويحلم بالحب . ضعيف منهوك توصد في وجهه الأبواب . يضيء عالمه نور خافت وتهز الريح باب حجرته في الظلام ...

ثم تتبدل الدنيا فتنفتح له الأبواب الموصدة ويعم النور والدفء والرضا والحب . ويقولون له : انت خالد . ويحاول أخيراً أن يتذوق طعم هذه الكلمة فلا يجد لها طعماً ... لقد كان يحسها من قبل.. اننا لا نحس الا بما هو بعيد عنا ! ! »

اما غيري فقد يكون عالم الخلود عنده « تمثالا لسياسي » أو « قصراً لغني » أو أي شيء آخر . وهذه العوالم تتحكم في أقلامنا دون أن نشعر كما يتحكم في تصرفاتنا عقلنا الباطن .

لهذا ، فانه لا ينفع الكاتب أن يتعلم ( الكلمة ) في المدرسة ثم يعاشرها على صفحات الجرائد ، ثم يسمعها من أفواه الناس ، ثم يكتبها في خطاب . فالمعرفة الحقيقية للكلمة بالنسبة للكاتب – المعرفة النافعة في الاستعمال – هي التي يستقيها الكاتب من أكبر عدد ممكن من الأساليب على مختلف العصور حتى يلم بذكرياتها – دون أن يشعر – ويتعمق شخصيتها و يجيد استعمالها كأديب

**وعن السؤال الثالث :**

أما قيمة العلاقة بين الكاتب والكلمة بالنسبة لمن يكتب بلغته فاظن أن فيما قدمته ما يكفي . اذ تبين أن ذكريات الكلمة وطاقتها تتزايد كلما زاد عدد الاستعمالات التي تعرف الكلمات من خلالها بتنوع العصور وتعدد الأقلام .

وأما قيمة هذه العلاقة بالنسبة للمترجم فهي أضخم منها بالنسبة للكاتب غير المترجم . فاذا كان الكاتب بلغته يغترف من نفسه بآلة ذات دلو واحد ، فان المترجم يغترف من نفسه بآلة ذات دلوين . والكاتب بلغته مسئول عن خلجات نفسه هو ، والمترجم عن لغة أجنبية مسئول عن خلجات نفس الغير . انه ( المرصد الأدبي ) الذي يسجل لنا اهتزازات النفس البشرية ويحلل ظواهرها في الأدب الاجنبي ؛ فانظر أي مسئولية يتحمل .

لهذا فانه يجب أن يكون أديباً وأن تكون ذكرياته عن الكلمة العربية ضخمة ، وذكرياته عن الكلمة الأجنبية قوية حتى يحس ( شخصية ) كل من الكلمتين .

وعشرة الأديب المترجم عنه – في آثاره وكتبه – مدة طويلة ، تتيح للمترجم بلاشك فرصة اكبر للتعبير عن خلجات نفس هذا الكاتب . فاذا قرأ شخص ما ( تولستوى ) أو ( هاردي ) أو ( جوركي ) في كل آثاره ثم بدأ يترجم كان توفيقه أعظم مما لو ترجم كتاباً لتولستوي ، وثانياً لهاردي وثالثاً لجوركي على الترتيب .

والعبرة فيما قلت راجع الى ان المترجم يكون أكثر تمكناً من ( شخصية الكلمة ) في الحالة الاولى واقل تمكناً في الحالة الثانية .

أنا شخصياً أحس أن الكلمات المفردة لها ملامح وألوان وطول وعرض وظل مثل ظل الروح على وجه الانسان . واخال كل أديب يحس نفس الاحساس .

أيها الناس : اعرفوا تراثكم العربي لتستطيعوا أن تعرفوا شخصية كل كلمة فيه .

القاهرة

**محمد عبد الحليم عبد الله**